

التوجيه المهني بين الأسرة والمدرسة

بقلم زكريا ابراهيم

مدرس بمدرسة السويس الثانوية

قبل أن نتحدث عن الدور الذي يجب أن تضطلع به كل من الأسرة والمدرسة في التوجيه المهني ، ينبغي لنا أولاً أن نحدد مهمة التوجيه المهني بصفة عامة — . وهنا نجد أن الرسالة التي يقوم بها التوجيه المهني هي مما يدخل في نطاق الجهود السيكولوجية التي تبذل من أجل إعداد المراهق للحياة المكتملة الناضجة . فالتوجيه المهني هو من المباحث السيكولوجية الحديثة التي يراد بها تهيئة المراهق للحياة العملية ، حتى يستطيع أن يقوم بدوره في المجتمع الذي سوف يخرج إليه . ولكن كثيراً من الناس قد اختلط عليهم التوجيه المهني بالاختيار الفني ، فوقع في ظنهم أن التوجيه المهني هو مجرد اختبار يجري في المعامل ، لامتحان قوى الفرد عن طريق طائفة من الأجهزة والآلات . ومن هنا فقد نشأت حملة لا مبرر لها على التوجيه المهني ، بدعوى أنه محاولة جريئة لقياس الطبيعة الإنسانية المرنة قياساً آلياً عقيماً . وما دامت الشخصية الإنسانية غير قابلة للتحديد ، فإن التوجيه المهني لن يتوصل إلى أية نتيجة علمية — فيما يرى خصومه — وبالتالي فإننا لن نستطيع أن نحدد أي طابع إنساني تحديداً علمياً محكماً .

بيد أن التوجيه المهني لا يرمى إلى هذا التحديد الآلي الذي يقصد إليه من وراء الاختيار الفني ، فمن الخطأ أن نخلط بين التوجيه والاختيار ، على الرغم مما للاختبارات من أهمية في التوجيه المهني . ولئن كان التوجيه المهني قد ظهر على أثر الجهود الكبيرة التي بذلها رجال الصناعة وأصحاب الحرف في البلاد الأجنبية ، من أجل اختبار العمال قبل إلحاقهم بأى عمل ؛ فإن من الواجب أن نفرق بين الاختيار الفني الذي يرمى إلى التصنيف والتفنيح ، وبين التوجيه المهني الذي يرمى إلى الإرشاد والهداية .

والواقع أن أصحاب الأعمال قد فطنوا منذ عهد قريب ، إلى أن كثيراً من الأعمال الخاصة تتطلب من الفرد استعداداً خاصاً ، فمن ثم اتجهوا إلى إجراء امتحانات

سيكولوجية واختبارات فيه لسائر العمال ، قبل أن يعهدوا لأى واحد منهم بأى عمل كائناً ما كان . ومن هنا فقد ظهرت مناهج مختلفة ، وأقيسة متعددة ، أريد بها تصنيف العمال ، ووضع سلم خاص للقيم الفنية ، حتى يقدر استعداد كل فرد تقديرأً دقيقاً محكماً . وهكذا نشأت فى معظم البلاد الأجنبية معامل خاصة ، سميت باسم معامل علم النفس الصناعى ، وأصبح لكل صناعة معينة معامل خاصة . أما الأجهزة التى درج استعمالها فى هذه المعامل ، فهى عبارة عن آلات خاصة تتطلب من الفرد أعمالاً معينة ، وحركات نوعية ، يمكن عن طريقها قياس أرجاعه الذهنية والحسية والحركية (بل والوجدانية أحياناً) ، مما ينبغى توفره فى العمل الذى سيعهد به إلى الفرد .

ولكن هذا « الاختيار الفنى » الذى يقوم على اختبارات دقيقة وأقيسة محكمة ، قد أصبح يرمى إلى تحديد استعدادات الفرد تحديداً آلياً ، فلم يلبث الطابع الآلى أن غلب عليه ، حتى صار مجرد فحص ميكانيكى لا أثر فيه للدراسة السيكولوجية أو البحث الإنسانى . ومن هنا فإن عمل « الاختيار » قد أصبح منحصرأً فى دائرة الميكانيكا والقياس ، ولم يعد يتجاوز نطاق التصنيف الآلى والتقدير الكمى . ولعل هذه النزعة الآلية هى التى عملت على نشأة « التوجيه المهنى » ، لأن علماء النفس قد حاولوا أن يتدبروا ما فى « الاختيار » selection من نقائص ، فاتجهوا إلى بحث جديد تغلب عليه النزعة الإنسانية .

والواقع أنه ليس يكفى أن نصنف الأفراد وفقاً لاستعداداتهم ، فنعهد إلى كل فرد بما هو ميسر له ؛ وإنما يجب أيضاً أن نعمل على توجيه كل فرد ، حتى نجنبه سائر الأخطاء التى قد يتعرض لها ، وكافة الصعوبات التى قد يصطدم بها . ومعنى هذا أن من واجبنا قبل أن « نصنف » الأفراد ، أن « نوجههم » ، وهذا التوجيه هو ما يجب علينا الآن أن نتدبره ، حتى نعرف الدور الذى يقوم به ، والغاية التى يرمى إليها .

وهنا نجد أن التوجيه المهنى هو أولاً وقبل كل شئ دراسة سيكولوجية علمية ، تنظر إلى الفرد نظرة إنسانية شاملة ، فتحاول أن تخدم كل فرد ، بالنظر إلى صالحه الخاص وصالح الجماعة معاً . وإذا كان التوجيه المهنى دراسة علمية بمعنى الكلمة ، فذلك لأنه يقوم على أساس علمى ، يتمثل فى دراسة الفوارق الفردية ، وقياس الاختلافات النوعية . — وهنا يكون علينا أن نهيب بالمعمل ، من أجل القيام

باختبارات سيكولوجية ، وأقيسة فنية . ولكن من واجبنا بعد ذلك ، أن نشرع في استخلاص النتائج من هذه الاختبارات المتعددة التي قمنا بها في العمل السيكولوجي . وهكذا يخرج التوجيه المهني من الدائرة العلمية ، لكي يتجه إلى الدائرة العملية ، فيقف وجهاً لوجه أمام الفرد ، والمجتمع ، والحياة . وهنا لا يكون على التوجيه المهني أن يتخلى عن وجهة نظره العلمية ، بل يكون عليه أن يحشد سائر العناصر التي اهتدى إليها من خلال الفحص العلمي ، لكي يلائم بينها وبين الواقع ، فكيف العلم مع العمل . وفي وسط هذا التيه العجيب الذي تختلط فيه ميول الفرد واستعداداته من ناحية ، وحالة المجتمع الاقتصادية من ناحية أخرى ، يحىء التوجيه المهني فيقوم بدوره الإيقاعي من حيث هو « مرشد » أو موجه . وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول إن مهمة التوجيه المهني إجتماعية في صميمها ، وذلك لأنها بمثابة تنظيم اجتماعي لا أثر فيه للزعة الآلية التي تغلب على الاختيار الفنى .

وإذن فإن الجهد الذى يقوم به التوجيه المهني « اجتماعي » محض ، لأنه لا يرمى إلى التصنيف أو العزل ، بل يرمى إلى الإرشاد والهدى . وليس يكفي أن نوجه المراهق نحو عمل نافع منتج ، به نضمن له تكويناً فنياً خاصاً ، وإنما يجب أيضاً أن يكون الطريق الذى نرسمه أمامه ، طريقاً محبباً إلى نفسه ، مشبعاً لميوله ورغائبه . ومعنى هذا أن التوجيه المهني لا يرمى إلى صالح الإنتاج (كأن الفرد مجرد وسيلة) وإنما هو يرمى إلى صالح الفرد في ذاته ، من حيث أنه لا بد لنا من أن ندخل في حسابنا سائر ميوله وأذواقه ورغائبه .

ولكن التوجيه المهني لا يقيم وزناً كبيراً لرغبات الفرد وميوله فحسب ، وإنما هو يعمل حساباً كبيراً لحالة المجتمع ومطالبه أيضاً . فالغاية التي يرمى إليها مزدوجة : لأنه يريد أن يوجه الفرد توجيهاً عادلاً من ناحية ، ويريد أن ينظم المجتمع تنظيماً صالحاً من ناحية أخرى . ومعنى هذا أن التوجيه المهني يعنى « العدالة » بالنسبة إلى الفرد ، و « النظام » بالنسبة إلى المجتمع . وهو من هذه الناحية أقرب ما يكون إلى « الأعمال الاجتماعية » التي لا بد فيها من إقامة التوازن أو الانسجام بين الفرد من ناحية ، والمجتمع من ناحية أخرى . ومن هنا فإن في وسعنا أن ندخله في نطاق « الخدمات الاجتماعية » التي تشد صالح الفرد والجماعة معاً .

وما دام التوجيه المهني ليس مجرد بحث علمي ينحصر في دائرة المعامل الصناعية ، فإن من واجبنا أن نعرف كيف يمكن أن تساهم الأسرة والمدرسة في الاضطلاع

بمهمته . وهنا نلاحظ أن من واجب الوالدين ، والمربين ، والأساتذة ، والأطباء ، ورجال الأعمال ، أن يتضافروا جميعاً في القيام بمهمة التوجيه المهني . وليس من شك في أن تبعة الأسرة والمدرسة في هذا التوجيه أعظم بكثير من تبعة أية هيئة أخرى ، ولكن من الواجب أن تحشد سائر الكفايات لخدمة المجتمع . وإذا كان التوجيه المهني مشكلة اجتماعية وخلقية معاً ، ففعل من واجب الحكومة أيضاً أن تساهم في حل هذه المشكلة .

وإنه لمن الملاحظ أن وزارة الشؤون الاجتماعية قد أخذت تنقبه إلى ضرورة مواجهة سائر المشاكل الاجتماعية التي تواجه الشباب ، فليس بدعاً أن ندعو إلى الاهتمام بمشكلة التوجيه المهني . ولن تستطيع الأسرة المصرية أن تقوم بواجبها في هذا التوجيه ، إلا إذا بدأت الحكومة بهذا الواجب ، فعملت على أساس علمي صحيح ، واهتمت بإقامة مراكز فنية للتوجيه المهني في كل مدينة ، وبلدة . ولسنا ننكر أن إنشاء مثل هذه المراكز ، يقتضي كفايات خاصة قد نكون مفقدين إليها في الوقت الحاضر ، ولكن هذا لا يمنعنا من أن نفكر جدياً في مشكلة التوجيه المهني التي يتوقف عليها صالح الفرد والجماعة معاً .

والواقع أن من واجب وزارة الشؤون أن تعمل على إنشاء مكاتب أو مراكز حكومية للاستشارة الفنية ، تضم بعضاً من الاختصاصيين في علم النفس ، فضلاً عن بعض الأطباء والمعلمين ، ويكون من واجبها أن تدرس حالة كل مراهق يتقدم للاستشارة ، بالاستناد إلى الوثائق الخاصة الواردة من المعاهد التي درس بها ، أو المدارس التي اختلف إليها . وليس القصد من إقامة مثل هذه المراكز ، فرض مهنة خاصة على المراهق ، بل إلزام كل أسرة بالاستشارة ، حتى لا يكون الاتجاه الذي يتخذه المراهق وليد الصدفة أو الاختيار السيئ . وهنا تكون مهمة « المرشد الاجتماعي » أن يقنع الأسرة عن طريق الأدلة والأسانيد ، بضرورة توجيه المراهق توجيهاً خاصاً يتفق مع ميوله واستعداداته . فالمرشد في مراكز التوجيه المهني هو « موجه » يستعين بطرقه الخاصة وأساليبه الفنية في تقديم رأى صائب للأسرة التي تلتجئ إليه ، وكلما لمست الأسرة في رأيه روح الإخلاص وآيات الإقناع ، كان رأيه أقرب إلى الإلزام ، وبالتالي أدنى إلى التحقق .

أما إذا أحسن الآباء فهم التوجيه المهني ، فهناك تكون الاستشارة مجدية حقاً ، لأن في وسع الوالدين أن يمدوا المراكز الاستشارية بالمعلومات القيمة التي

تساعد على حسن توجيه المراهق . وإنه لمن واجب الأسرة أن تتعاون مع المركز الفني تعاوناً حقيقياً حتى تكون للاستشارة قيمتها . فليس المهم أن يقدم المركز إلى الأسرة مجرد نصيحة ، بل المهم أن تتصافر الأسرة مع مركز التوجيه المهني ، حتى تكتمل الاستشارة بتعاون الوالدين مع الموجهين . وهنا يكون مثل الموجه مع الوالدين كمثل الطبيب مع المريض ، فإن المريض ملزم بأن يمد الطبيب بالمعلومات اللازمة لتشخيص المرض ومعرفة عوارضه .

ولن يكون للاستشارة أى معنى إذا لم تقترن بالثقة التامة من جانب الأسرة في الموجه السيكولوجي الذى تتقدم إليه . فليس يكفي أن نجعل الاستشارة إلزامية ، بل ينبغي أيضاً أن تسود الثقة بين الوالدين والموجهين ، حتى لا يكون التوجيه مجرد نصيحة يضرب بها عرض الحائط . وإذن فإن من واجب الموجهين في المراكز الفنية أن يعرفوا بكل صراحة رغبة الوالدين وأملهم في المراهق ، فضلاً عن مواردهم المادية ، وحالتهم الاجتماعية ، والعلاقة بينهم وبين الطفل ، وصلة الطفل بالمدرسة ، ومواهب الطفل الخاصة ، ومظاهر نقصه ، إلى غير ذلك مما تستطيع الأسرة أن تكشف عنه بوضوح للمركز الفني . — أما إذا لم يكن التفاهم سائداً بين الآباء والمراكز الفنية ، فهناك يكون إلزام الاستشارة عبثاً لا فائدة منه .

وإنه لمن الضروري أن يعرف المركز الفني بكل صراحة حالة الوالدين ، وسن كل منهما ، وعلاقة كل منهما بالطفل ، لأن كل هذا من شأنه أن يؤثر على مركز الطفل . وكذلك ينبغي أن يقف المركز التوجيهي على ميول الأب والأم ، وأسلوب كل منهما في التربية ، فضلاً عن عادات الأسرة في التسلية ، ومعاملة الناس ، والاطلاع الخارجى ، ومدى توافق الطفل مع إخوته وأخواته ، والأعباء التي اعتاد القيام بها ؛ أعنى « البيئة » التي نشأ بين ظهرانيها . فهذه المعلومات التي تستطيع الأسرة أن تمد بها المركز الفني ، تعين على فهم حالة الطفل ، وبالتالي تساعد على توجيهه . وكثيراً ما يكون مركز الطفل ضعيفاً ، بسبب بيئة مختلة أو حالة اجتماعية سيئة ، فلا بد من أن يعرف الموجه ظروف الطفل ، حتى لا يحكم عليه حكماً خاطئاً ، أو حتى لا يحجفه حقه . وليس من شك في أن الحالة الاجتماعية أو الأخلاقية للبيت الواحد ، كثيراً ما تكون مسئولة إلى حد كبير عن انخفاض المستوى العام للطفل ، فمن الضروري إذن أن نحيط علماً بالبيئة التي نشأ فيها الطفل ، حتى نتوخى العدالة في الحكم على المستقبل الذى يمكن أن ينتظره .

ومهما يكن من شيء فإن في وسع الأسرة أن تساهم في توجيه طفلها توجيهاً سليماً ، إذا كانت عوناً للمركز الفنى على فهم الطفل ومعرفة حالته . ولسنا نزعم أن توجيه الطفل رهن بظروف الأسرة أو حالتها الاجتماعية فحسب ، وإنما كل ما نحرص على تأكيده هو أن معرفة البيئة التى نشأ فى وسطها الطفل ، من شأنها أن تساعد على توجيهه . وعلى أية حال ، فإن توجيه المراهق يجب أن يقوم على المراهق نفسه ، بغض النظر عن سائر المشاكل أو العوائق التى قد يصطدم بها . وأما حالة الأسرة المادية ، فإنها قد تكشف لنا عن الصعوبات التى قد تحول دون تحقيق التوجيه المقترح ؛ وهنا يكون من واجب المركز الفنى أن يأخذ بيد المراهق ، حتى يساعده على تحقيق المستقبل الذى اختطه له .

وهكذا نرى أن كل « طفل » هو عبارة عن « حالة » يجب أن تدرس على حدة . فليس يكفى أن نعهد إلى الكشف عن الطفل نفسه ، بل ينبغي أيضاً أن نبحث كل ما أحاط به من ظروف خاصة ساهمت فى تكوينه ، أو ساعدت على نموه ، أو وقفت حائلاً دون تقدمه . وليس من شك فى أن من واجبنا أن نستبقى العوامل المساعدة ، ونزيل القوى المناهضة ، ونغير الظروف العائقة ، حتى نتمهد للطفل سبيل التقدم ، ونوجهه توجيهاً سليماً صائباً . فكلما ازداد فهمنا للبيئة المنزلية ، وطرق تكيف الطفل معها ، ومدى استجابته للوسط الذى أحاط به ، استطعنا أن نرشده إلى السبيل الذى يتفق مع حالته الخاصة .

وليس الغرض من هذا التوجيه أن يوفر على المراهق جهداً لا بد أن يبذله ، بل الغرض أن نوجه المراهق نحو العمل الذى يتذوقه ، والجهد الذى يستعذبه ، حتى يكون نشاطه مقترناً باللذة والسرور . فكل ما يرمى إليه التوجيه المهنى هو أن يرشد المراهق إلى العمل الذى يلائمه كل الملاءمة . ولا ريب أننا إذا دفعنا المراهق دفعاً إلى مستوى ، هو دونه بكثير ، فإننا نجعل منه كائناً ضعيفاً لا يقوى على شيء ، إذ يشعر هو فى قرارة نفسه بأنه دون ما يعهد إليه ، فيظل دائماً فى مؤخرة الصفوف . أما مهمة المدرسة فى التوجيه المهنى فإنها تتصل اتصالاً مباشراً بالمهمة التربوية التى تضطلع بها المدرسة على وجه العموم . والواقع أن المدرسة هى التى تعد الطفل للحياة العملية ، فهى بالضرورة تساهم بالقسط الأوفر فى توجيه المراهق . وإذا كانت المدرسة هى بمثابة المجتمع الذى يتعلم فيه الطفل روح الجماعة ، فإن من المؤكد أن أساليب التعامل التى يتبعها المراهق نحو أقرانه التلاميذ ، هى بعينها تقريباً تلك التى

سيستبعها من بعد نحو زملائه في العمل . فمن الواجب أن يتعلم التلميذ في المدرسة كيف يطيع أستاذه ويحترم أقرانه ، حتى يستطيع من بعد أن يطيع رئيسه ويحترم زملاءه في العمل الذي سوف يندمج فيه . وإذا كان من الأهلية بمكان أى نقف على مدى توافق الطفل في المدرسة مع أساتذته وزملائه ، فما ذلك إلا لأن التوجيه المهني يتوقف إلى حد كبير على مثل هذه المعلومات القيمة . وإذن فإن مهمة المدرسة في التوجيه المهني لا تنحصر في الجهود الخاصة التي تبذل من أجل هذا التوجيه ، وإنما هي تتمثل أيضاً في « الإعداد » الذي تقوم به حين تعمل على تهذيب الطفل خلقياً واجتماعياً . ولا ريب أن ملاحظات المدرسة وتعليماتها ، أهمية كبرى من بعد ، حينما يحى دور الحكم على الطفل . فالمدرسة هي التي تعد الطفل للحياة العملية ، وهي التي تضمن له سبيل النجاح في مستقبل حياته .

بيد أن مساهمة المدرسة في مهمة التوجيه المهني لا تنحصر في الدور التربوي الذي تقوم به المدرسة (بحكم وظيفتها الأصلية) وإنما هي تتمثل أيضاً في دراستها للطفل وتعرفها لحالته . فالمدرسة ملزمة بأن تضع « دوسيه » خاصاً لكل تلميذ ، تضمنه معلومات دقيقة عن حالته العامة ، ومدى تقدمه ، ومستواه العقلي . ومن الواجب أن يطلع على هذا « الدوسيه » كل من يتصدى لتوجيه الطفل ، في مراكز التوجيه المهني ، حتى يستطيع أن يدلي بحكم صائب يستند إلى وثائق قاطعة . وإذا كانت المدرسة هي من المراهق بمثابة « الماضي » الذي لا بد من معرفته ، فإن المعلومات التي يمكن أن تمدنا بها المدرسة هي على غاية من الأهمية ، لأنها تكشف لنا عن ماضيه بأكمله . فمن الضروري إذن أن نعرف كيف كانت حالة المراهق في دور التحصيل العلمي ، وإلى أى حد كان توافقه مع أساتذته وزملائه ، وما هي مظاهر امتيازه ونواحي نقصه . وهكذا نستطيع أن ننظر إلى ما كان ، أو ما هو كائن ، فنحكم على ما سيكون ، ونبنى للمستقبل على أساس الماضي .

وفضلاً عن هذا كله ، فإن المدرسة إذ تعد تلاميذها لما يستقبلهم من الأعمال ، قد تحسن صنعاً إذا هي فتحت أبوابها بين الحين والآخر لحواري جديد ، يتنسمه التلاميذ داخل المدرسة نفسها . وهنا يكون على المدرسة أن تدعو أصحاب الحرف ورجال الأعمال ، لتزويد التلاميذ بالمعلومات اللازمة عن الحرف والمهن المختلفة . وليس من شك في أن هؤلاء قد يكونون أقدر على التحدث عن أعمالهم ، مما لو تحدث عنها أناس لا يمتون إليها بأدنى صلة . هذا إلى أن التلاميذ كثيراً ما يتأثرون بالمحاضرين

أنفسهم ، فمن الواجب أن يتولى الحديث عن الحرف المختلفة ، أناس عركوا هذه الحرف بأنفسهم ، وفي استطاعتهم أن يكشفوا عن أسرارها التي قد تخفى على غيرهم . فليس على المدرسين أن يشرحوا للتلاميذ مهناً لم يختبرها أحد منهم بنفسه ، وإنما يجب أن يتولى هذه المهمة أصحاب المهنة أنفسهم . ولا ريب أن على هؤلاء تقع أولاً وقبل كل شيء مهمة الدعاية لمهنتهم . فمن واجب أصحاب المهن والحرف المختلفة أن يقوموا هم أنفسهم بدعوة المراهقين إلى الإقبال على أعمالهم ، عن طريق المحاضرات الشيقة ، والأحاديث الطلية .

وصفوة القول أن المدرسة تقوم بدور هام في التوجيه المهني ، لأنها تنمى في الطفل روح الجماعة ، وتمده بالأسلحة اللازمة للدخول إلى معركة الحياة ، فضلاً عن أنها قد تكشف للمراهق عن حقيقة الأعمال المختلفة التي يمكن أن تسنح له الفرصة للالتحاق بها . وكلما كانت المدرسة وثيقة الصلة بالحياة ، كانت أقدر على المساهمة في التوجيه المهني . فالمدرسة هي التي تربط حياة الفرد بالحياة الجمعية ، وهي التي تهيب للمراهق أن يخرج إلى عالم الحياة العملية مزوداً بالأسلحة اللازمة للكفاح .

وليس من شك في أن الهدف الأسمى الذي يمكن أن تصبو إليه المدرسة ، إنما هو أن تهيب للمراهق تكويناً فنياً خاصاً به يضمن له مركزاً في الجماعة ، وفقاً لاستعداداته وميوله . وليس معنى هذا أن التوجيه المنشود من شأنه أن يضمن لكل مراهق حياة ناعمة لا أثر فيها للعوائق والمشاكل ، بل المقصود أنه يجهز كل شاب بوسائل الكفاح في معركة الحياة . أما إذا تصورنا أن غاية التوجيه المهني هي ضمان المستقبل لكل شاب ، عن طريق إعدادة لحياة الوظيفة الراتبية ، فقد فهمنا التوجيه على غير حقيقته ، لأن هدفه أبعد ما يكون عن هذا المصير الضعيف الذي يفرض على خلق جيل محطم من الشيوخ !

زكريا إبراهيم